A WORLD WITHOUT WAR:

IS IT DESIRABLE? IS IT FEASIBLE?*

Joseph Rotblat

عالم بدون حروب:

هل هناك من يرغب في ذلك؟ هل يبدو تحقيق ذلك ممكنا؟

جوزيف روتبلات

في عنوان حديثي عن عالم خال من الحروب، طرحتُ سؤالين: هل هناك من يرغب في ذلك؟ وهل يبدو تحقيق ذلك ممكنا؟ وبعد أن فقدت البشرية عدة ملايين من الأرواح خلال الحربين العالميتين في القرن الماضي، يصبح حلم البشرية في تحقيق عالم بدون حروب - بالتأكيد - تعبيراً عن رغبةٍ أكثر إلحاحاً. وقد تأكدت هذه الرغبة أكثر وأكثر بفعل الأحداث التي وقعت منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. إن إيجاد عالم خال من الحروب لم يعد مجرد حلم أو رغبة؛ إنه الآن يمثل ضرورة؛ بل يمثل أمراً أساسيا وجوهريا إذا ما أريد للبشرية أن تبقى على قيد الحياة.

وأشير هنا إلى تطور الأسلحة شديدة الفتك، التي جرى استخدامها لأول مرة في هيروشيما وناجازاكي. لقد كان تدمير هاتين المدينتين، إيذانا ببدء عصر جديد، هو العصر النووي، الذي يمثل التدمير سِمته الرئيسية، وذلك لأول مرة في تاريخ الحضارة. وكان أن توصل الإنسان إلى الوسائل التقنية الكفيلة بتدمير الجنس البشري، بل وأن ينجز ذلك، سواء عن عمد أو عن غير قصد، في ضربة واحدة. وعلى ذلك فقد أصبح الجنس البشري في هذا العصر النووي مهددا بالفناء.

في الواقع، لم يكن هذا التهديد يلوح في الأفق عندما بدأ التفكير في جدوى صنع القنبلة الذرية في إنجلترا، بعد مرور وقت قصير من اندلاع الحرب العالمية الثانية. كان لدينا آنذاك فكرة جيدة عن القوة التدميرية الرهيبة للقنبلة. كنا ندرك الآثار المحتملة للانفجار، الذي من شأنه أن يدمر المباني عبر مسافات شاسعة؛ كنا ندرك موجة الحرارة التي سوف تتلف كل شيء في نطاق دائرة أكثر اتساعا؛ كان لدينا تصور عن الانتشار الإشعاعي، الذي من شأنه أن يستمر في التسبب في وفاة العديد من البشر لفترة طويلة بعد انتهاء العمليات العسكرية. وأكثر من ذلك فقد فكرنا في تطوير القنبلة الهيدروجينية، وهي ذات قوة تدميرية أكبر ألف مرة. ولكننا في مناقشاتنا حول آثار هذه الأسلحة لم يخطر ببالنا للحظة واحدة في نهاية المطاف هول الكارثة التي قد تنجم عن استخدامها، فالنتيجة المحققة هي انقراض الجنس البشري. لم نتصور ذلك لأننا كنا نعرف أن الأمر سيتطلب تفجير عدد كبير جدا قد يصل إلى مئة ألف من قنابل المليون طن. وحتى في أكثر السيناريوهات تشاؤما لم نكن نتصور أن المجتمع البشري يمكن أن يكون غبيا أو حتى مجنونا، إلى الدرجة التي تجعله يكدّس بحمق مثل هذه الترسانات الهائلة التي لا يمكن أن نرى لها أي غرض على الإطلاق. ولكن المجتمع الإنساني أثبت أنه مجنون. ففي غضون بضعة عقود، كانت ترسانات بهذا الحجم قد تم صنعها، وجعلها جاهزة للاستخدام من قبل الدولتين العظميين آنذاك، الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي. وفي عدة مناسبات، خلال الحرب الباردة، كدنا نقترب من خطر استعمالها الفعلي. وأذكر، على وجه الخصوص، واحدة من هذه المناسبات، أزمة الصواريخ الكوبية منذ اثنين

The 1st Global Leaders Forum, Seoul, South Korea, 8 October 2004. *

السير جوزيف روتبلات (1908 – 2005) هو عالم فيزيائي بريطاني وأحد أشهر المعارضين البارزين لسباق التسلح النووي، وقد حصل على جائزة نوبل للسلام في 1995 مناصفة مع مؤتمرات منظمة الباجواش للعلوم والشؤون الدولية، وهي منظمة تضم عددا من العلماء وكان هو يرأسها في ذلك الوقت، تقديرا لجهودهم في سبيل نزع السلاح النووي.

وأربعين عاما، عندما كنا على شفا كارثة كاملة، وعندما صار مستقبل حضارتنا كله معلقا على قرار رجل واحد. ولحسن الحظ، كان نيكيتا خروشوف رجلا عاقلا، وانسحب في اللحظة الأخيرة. ولكننا قد لا نكون محظوظين في المرة القادمة. وإذا استمرت السياسات الحالية على منوالها فمن المؤكد أن تلك المرة القادمة سوف تأتي.

إن الجانب الأخلاقي هو أساس القضية النووية. فهل نحن ذاهبون لنؤسس عالمنا على ثقافة السلام أم على ثقافة العنف؟ الأسلحة النووية في جوهرها غير أخلاقية: فهي تدمر بلا تمييز، وتستهدف على حد سواء كلا من العسكريين والمدنيين، كلا من الأبرياء والمعتدين، وتقتل من هم الآن على قيد الحياة، وتلك الأجيال التي لم تولد بعد. وقد تسفر عواقب استخدامها عن فناء الجنس البشري برمّته. كل هذا يجعل من الأسلحة النووية أداة غير مقبولة للحفاظ على السلام في العالم. ولكن هذا هو بالضبط ما كنا نفعله خلال الحرب الباردة وفيما بعدها. لقد أبقينا على الأسلحة النووية كأداة للردع، تجعل الكل يتحاشى الانزلاق إلى الحروب خشية جسامة الانتقام.

لكي يكون الردع فعالا، يجب أن يكون التهديد بالانتقام حقيقيا، يجب جعل هؤلاء الذين ينتوون القيام بالعدوان يدركون أن الأسلحة النووية سوف تستخدم ضدهم بالفعل، وإلا فسوف يستشعرون بسرعة أن الأمر لا يعدو أن يكون خداعا. إن على جورج دبليو بوش، أو فلاديمير بوتين، أو توني بلير، أن يبرهنوا بطريقة مقنعة على أنهم من ذلك الصنف المغامر الذي لا يتردد في أن يضغط على الزر وأن يطلق العنان لأداة تدمير بالجملة. إنني أراها فكرة مرعبة أن نتصور أن من بين الصفات الضرورية المؤهلة للقيادة ذلك الاستعداد لارتكاب أي عمل من أعمال الإبادة الجماعية، لأن هذا هو تقييم ما سيحدث في التحليل النهائي. وعلاوة على ذلك، فإننا حين نذعن لهذه السياسة ولا نتصدى لها، فكأن كل واحد منا – وليس القادة فقط - يضغط بإصبعه على الزر؛ كل واحد منا يقوم بدور في مقامرة تعرِّض بقاء الحضارة الإنسانية لخطر داهم. إننا نترك أمن العالم مستندا على توازن الرعب.

ما من شك في أن ذلك سوف يؤدي على المدى البعيد إلى تآكل الأساس الأخلاقي للحضارة. إنني لن أدهش إذا ما أُقيم الدليل على أن كل ما يشهده العالم من زيادة العنف - بداية من جرائم السطو من قبل الأفراد، إلى الجريمة المنظمة، إلى الجماعات الإرهابية مثل تنظيم القاعدة - له علاقة ما بثقافة العنف التي عشناها خلال سنوات الحرب الباردة، ومازلنا نعيشها. إنني قلق بشكل خاص إزاء تأثير ذلك على جيل الشباب.

نحن جميعا نتوق إلى عالم يسوده السلام، وعالم تسوده العدالة. نحن جميعا نريد أن نغرس في جيل الشباب "ثقافة السلام" التي نسمع عنها كثيرا. ولكن كيف يمكننا الحديث عن ثقافة السلام إذا كان هذا السلام يُبنى على فكرة وجود أسلحة الدمار الشامل؟ كيف يمكننا إقناع جيل الشباب بأن يتخلى عن ثقافة العنف، حين يدركون أننا نعتمد على التهديد باستخدام العنف المفرط كوسيلة لتحقيق الأمن؟

لا أعتقد أن الناس في العالم يقبلون بسياسة هي بطبيعتها غير أخلاقية وأنها على الأرجح ستنتهي بكارثة. كان هذا واضحا في رد الفعل إزاء تدمير اثنتين من المدن اليابانية، وتمثل في شعور بالاشمئزاز، توافقت عليه الغالبية العظمى من الناس في العالم، بما في ذلك الولايات المتحدة. منذ البداية، كانت الأسلحة النووية ينظر إليها باشمئزاز؛ وقد أثار استخدامها معارضة تكاد تكون عالمية للعودة لاستخدامها مرة أخرى. وأعتقد أن هذه المعارضة ما تزال قائمة حتى اليوم.

لقد جرى تجسيد هذا الشعور على الساحة الدولية في أول قرار للجمعية العامة للأمم المتحدة. كان ميثاق الأمم المتحدة قد تم إقراره في يونية / حزيران 1945، قبل شهرين من هيروشيما، وبالتالي لم يتضمن الميثاق أي بند يتناول العصر النووي. ولكن عندما اجتمعت الجمعية العامة للمرة الأولى في يناير / كانون الثاني 1946، كان أول قرار اتخذ بالإجماع هو السعي للقضاء على الأسلحة النووية وجميع أسلحة الدمار الشامل الأخرى.

ولكن، منذ البداية، كانت هناك عناصر من الصقور بين قيادات الولايات المتحدة، الذين كانوا يريدون الحفاظ على احتكار للولايات المتحدة للنشاط النووي. كان الجنرال ليسلي جروفز Leslie Groves هو المدير العام لمشروع مانهاتن، الذي صنع القنبلة الذرية خلال الحرب العالمية الثانية. وفي أكتوبر / تشرين الأول 1945، بعد شهرين من هيروشيما، أوجز وجهات نظره بشأن السياسة النووية الأمريكية في بيان صريح:

"إذا كنا حقا واقعيين ولسنا مثاليين، كما نحاول أن نبدو (هكذا)، فعلينا أن لا نسمح لأي قوة أجنبية لا يربطنا بها تحالف قوي، ولا نثق بها ثقة مطلقة، أن تصنع أو تمتلك أسلحة ذرية . فإذا حدث أن شرعت دولة ما في صنع أسلحة ذرية فعلينا أن ندمر قدراتها على تطوير هذه الأسلحة قبل أن تتقدم إلي الدرجة التي تمثل تهديداً لنا "

وخلال الـ 59 عاما التي مضت منذ ذلك البيان، شهدت سياسة الولايات المتحدة عددا من التغييرات، ولكن المبدأ الاحتكاري الذي أرساه الجنرال جروفز ظل دائما أهم أركانها، والآن، في ظل جورج دبليو بوش، فقد أصبح هذا المبدأ الاحتكاري يمثل السياسة الأمريكية الفعلية.

خلال سنوات الحرب الباردة كان التكديس الفاحش للترسانات النووية الضخمة له ما يبرره في إطار المبدأ المعروف بـ "التدمير المؤكد المتبادل* MAD"؛ بأن يضمن لكل جانب امتلاك أسلحة تكفي لتدمير الجانب الآخر حتى بعد تعرضه للهجوم. ومع انتهاء الحرب الباردة، وانهيار الاتحاد السوفيتي، فلم تعد هذه الحجة قائمة. ثم حان الوقت لإلغاء الترسانات النووية، تنفيذاً لما التزمت به الدول النووية بموجب معاهدة عدم انتشار الأسلحة النووية، التي وقع وصدق عليها كل منهم. بيد أن هذا لم يحدث. وكان أن قررت الولايات المتحدة أن الترسانات النووية، حتى ولو وُجِدَتْ بحجم أصغر، مطلوبة لمنع وقوع اعتداء بأسلحة الدمار الشامل الأخرى، مثل الأسلحة الكيميائية أو البيولوجية. وذهبت استراتيجية بوش، جزئيا كرد فعل لهجمات الحادي عشر من سبتمبر / أيلول الإرهابية، إلى أبعد من ذلك كثيراً، فقد اعتبرت الأسلحة النووية هي الأدوات التي تمكنهم من الحفاظ على السلام في العالم.

وفي تحول عن المبادئ السابقة، حيث كان يُنظر إلى الأسلحة النووية باعتبارها أسلحة الملاذ الأخير، نجد بوش يعلن عن استراتيجية ترمي إلى تضمين قدرات نووية في خطط الحرب التقليدية. لقد أصبحت الأسلحة النووية الآن جزءاً نمطيا من الاستراتيجية العسكرية، ولسوف يجري استخدامها في الصراع تماماً شأنها شأن أي أسلحة أخرى شديدة الانفجار. ويمثل ذلك تحولا كبيراً وخطيراً في فلسفة استخدام الأسلحة النووية.

إن تنفيذ هذه السياسة قد بدأ بالفعل. فالولايات المتحدة تقوم بتطوير رأس نووي جديد ذي قوة تفجيرية صغيرة، ولكن شكله مصمم بحيث يتيح له قدرة عالية جدا على اختراق الأسطح الخرسانية، أو كما يسمونه "الرأس النووي الصغير الخارق للتحصينات**".

لكي تتحقق الثقة لدى السلطات العسكرية في أداء الأسلحة الجديدة فلابد أن تمر بسلسلة من الاختبارات. ولكن هناك في الوقت الحاضر معاهدة تحظر إجراء تجارب على الأسلحة النووية، معاهدة الحظر الشامل للتجارب النووية، التي وقعت عليها الولايات المتحدة ولكنها لم تصدق عليها.

ولو أن الولايات المتحدة شرعت في استئناف التجارب، فمن شأن هذا أن يكون إشارة إلى غيرها من الدول الحائزة للأسلحة النووية كي تحذو حذوها. فمن شبه المؤكد أن الصين سوف تستأنف التجارب. وبعد قرار الولايات المتحدة بتطوير دفاعات مضادة للصواريخ البالستية، تشعر الصين بأنها معرّضة، ومن المرجح أنها ستحاول الحد من درجة تعرضها عن طريق تحديث وبناء ترسانتها النووية. وقد تعمل دول أخرى حائزة للأسلحة النووية، مثل الهند أو باكستان، على استخدام الفرصة التي أتاحتها الولايات المتحدة لتحديث ترساناتها. وفيما يبدو فإن خطر تجدد سباق التسلح النووي هو خطر حقيقي.

---

* MAD = mutual assured destruction

** "bunker-busting mini-nuke"

لقد أصبح الوضع أكثر خطورة في ظل استراتيجية الأمن القومي الجديدة التي عرضها الرئيس بوش. "فمن أجل إحباط أو منع الأعمال العدائية من قِبل خصومنا، ستقوم الولايات المتحدة، إذا لزم الأمر، بتوجيه ضربات استباقية".

إن خطر هذه السياسة ليس في حاجة إلى زيادة تأكيد. وحين تعلن أعتى الدول عسكريا عن استعدادها لاستخدام الأسلحة النووية كإجراء استباقي، فليس من المستغرب أن تسارع الدول الأخرى إلى اتباع نفس النهج.

وتمثل تايوان أحد السيناريوهات المحتملة الأخرى لضربة نووية استباقية من جانب الولايات المتحدة. فلو حدث أن قررت السلطات في تايوان إعلان الاستقلال، فمن شأن هذا أن يؤدي حتما إلى محاولة غزوها عسكريا من جانب الوطن الأم: الصين. وعندها، فإن الولايات المتحدة الأمريكية، التي تلتزم بالدفاع عن سلامة تايوان، قد تختار القيام بضربة استباقية.

من جملة ما تقدم، نرى أن السياسة العدوانية للولايات المتحدة، تحت إدارة بوش، قد خلقت وضعا غير مستقر في شؤون العالم، مع تصاعد كبير في خطر الأسلحة النووية التي سوف تستخدم في القتال.

****

بعد عشر سنوات من كارثة هيروشيما، وعندما بدأنا ندرك جسامة الأخطار الناجمة عن اختراع الأسلحة النووية، قامت مجموعة من العلماء، تحت قيادة برتراند راسل وألبرت آينشتاين، بمحاولة تحذير الحكومات والشعوب. وأصدرنا البيان الذي أصبح يعرف بـ "إعلان راسل – آينشتاين". واسمحوا لي أن أتلو جملتين من هذا الإعلان:

"نحن نتحدث في هذه المناسبة، ليس كمنتمين إلى هذه الأمة أو تلك، إلى هذه القارة أو تلك، إلى هذه العقيدة أو تلك، ولكن كبشر، وأعضاء من جنس الإنسان، الذي أصبح استمراره في الوجود محل شك".

وأردفنا القول: "وهنا، إذن، تكمن المشكلة التي نحن بصدد عرضها عليكم، مشكلة صارخة ورهيبة، ولا مفر من مواجهتها: هل سنمضي قدما إلى وضع نهاية للجنس البشري، أم ستقدم البشرية على نبذ الحرب؟"

إنني الآن الوحيد الباقي على قيد الحياة من بين الأحد عشر الموقعين على إعلان راسل - آينشتاين، وبذلك، فمن واجبي - بل مهمتي – ألا أملَّ من طرح هذا السؤال على الجمهور. ومع توقف الحرب الباردة، وانتهاء كل الجوانب الواقعية من الصراع الأيديولوجي الذي استقطب المجتمع الدولي فقد هدأت حدة التهديد النووي إلى حد ما، ولكنه لم يختفِ. وبالرغم من تخفيض الترسانات النووية، فمازال هناك ما يكفي من الرؤوس الحربية موجودة في حالة تأهب قصوى لتودي بحياة ملايين عديدة من الضحايا إذا أطلقت عمدا، أو نتيجة إنذار كاذب، أو أية حوادث أخرى. ما دامت الأسلحة النووية موجودة فسوف يظل الخطر قائمًا. وقد أعرب روبرت ماكنمارا، وزير دفاع الولايات المتحدة، عن هذا المعنى أثناء أزمة الصواريخ الكوبية، في جملة بسيطة: "إن الارتباط غير المحدود بين الأسلحة النووية ونزوعية الإنسان للخطأ سوف تؤدي إلى تهديد نووي متبادل."

ولكن حتى لو تم الخلاص من جميع ترسانات أسلحة الدمار الشامل، فلن يتحقق ضمان الأمن للبشرية. فالأسلحة النووية لا يمكن إلغاء اختراعها. ونحن لا نستطيع أن نمحو من عقولنا معرفة كيفية صنعها. فإذا حدث، في وقت ما في المستقبل، أن اندلع صراع خطير بين القوى العظمى حينذاك، فلن تمر فترة طويلة قبل أن تكون الترسانات النووية قد أعيد بناؤها، وأن نجد أنفسنا مرة أخرى في خضم الحرب الباردة.

وأكثر من ذلك، فإن التقدم في العلوم قد يؤدي مستقبلا إلى اختراع وسائل جديدة للدمار الشامل، ربما أشد قوة، وربما أكثر جاهزية وأسهل استخداما. ونحن نعرف بالفعل عن التقدم في الحرب البيولوجية حيث

يمكن من خلال هندسة الجينات تحويل بعض أنواعها المسببة للأمراض إلى عوامل خبيثة مرعبة. ولكن المستقبل قد يأتي بتطوير آليات مختلفة تماما. ومثلما لا يمكننا التنبؤ بنتائج البحث العلمي، فكذلك لا يمكننا التكهن بالقدرات المدمرة المحتملة لتطبيقاته العسكرية. وكل ما يمكننا قوله هو أن الخطر القادم خطر حقيقي.

إن خطر انقراض الجنس البشري معلق فوق رؤوسنا مثل سيف ديموقليس. ولا يمكننا أن نسمح أن تنتهي إلى الهلاك كل هذه الإنجازات المبهرة التي كانت نتاج مليارات السنين من التطور. إننا ممتنون لأسلافنا، ولجميع الأجيال السابقة، فقد تركوا لنا الثروات الثقافية الهائلة التي نتمتع بها، ومن واجبنا المقدس أن نوَرِّثها بدورنا إلى الأجيال المقبلة. نحن ندين بالولاء للإنسانية ولابد من ضمان استمرار الجنس البشري.

إن التوصل إلى اتفاق حول القضاء على أسلحة الدمار الشامل المعروفة أمر في غاية الأهمية، لأن من شأنه أن يزيل مصدرا مباشرا للخطر، ولكنه لن يكون كافيا في المدى الطويل. ليس علينا فقط مجرد القضاء على مبررات وأدوات شن الحرب من أجل حماية مستقبل البشرية، ولكن علينا أيضا القضاء على الحرب نفسها. ومادامت الحرب هي العرف الاجتماعي السائد، وما دام حل الصراعات يتم عن طريق اللجوء إلى المواجهة العسكرية، فإن مكمن الخطر أن الحرب التي تبدأ حول صراعات محلية، على سبيل المثال حول كشمير، سوف تتصاعد إلى حرب عالمية تستعمَل فيها أسلحة الدمار الشامل. قد تكون احتمالات اشتعال الحرب في أي وقت من الأوقات ضئيلة جدا، لكن النتائج المترتبة عليها في حالة حدوثها هي من الضخامة بحيث يجب علينا أن نفعل كل ما في وسعنا للقضاء على الخطر. في هذا العصر النووي لم يعد في وسعنا أن نسمح بحدوث الحرب، أي حرب. وعندما يكون مستقبل الجنس البشري محفوفا بالمخاطر، فلابد أن يثير هذا القلق لدى كل واحد منا. لقد أصبح الحلم بعالم خال من الحروب ضرورة ملحة، ويجب أن يكون تحقيق هذا الحلم هو الهدف الذي لا حياد عنه.

وهذا ينقلنا إلى السؤال الثاني في عنوان هذا الحديث: هل يكون تحقيق عالم بلا حروب ممكنا؟ بالنسبة للكثيرين من الناس، يبدو مفهوم عالم خال من الحروب مجرد فكرة خيالية، ورؤية بعيدة المنال، غير قابلة للتحقيق. حتى أولئك الذين بدءوا يتقبلون مفهوم عالم خال من الأسلحة النووية لا يزالون يرفضون فكرة وجود عالم خال من الأسلحة الوطنية لأنها في نظرهم غير قابلة للتطبيق.

إن مثل هذه المواقف ليس مستغربة إذا أخذنا في الاعتبار، منذ البداية، أن المجتمع المتحضر كان يحكمه القول الروماني المأثور: إذا كنت تريد السلام فقم بالإعداد للحرب* لقد تجاوبنا باهتمام مع هذه المقولة على الرغم من أنه عبر كل العصور كان التحضير للحرب يجلب، ليس السلام، ولكن الحرب. ومع بداية ظهور الأسلحة الشديدة الفتك، يبدو أن القول المأثور قد تغير ليكون: إذا كنت تريد السلام فعليك أن تبقى مدججا بالسلاح. وتبعا لذلك، فقد كدَّسَ كلا الجانبين ترسانات نووية ضخمة من أجل الحفاظ على السلام، وهذه السياسة لا تزال موجودة حتى الآن بالرغم من وجود قوة عظمى وحيدة فقط.

لقد تأصل في نفوسنا ذلك المفهوم الشيطاني - أنه من أجل السلام علينا أن نستعد للحرب - منذ بداية الحضارة لدرجة أننا بدأنا نعتقد أن شن الحرب جزء من تكويننا الطبيعي. وهناك من يقول لنا إننا بحسب تركيبتنا البيولوجية مبرمجون للعدوان، وأن الحرب موجودة داخل جيناتنا.

إنني كعالِم أرفض هذا الطرح. ولست أرى أي دليل على أن العدوانية موجودة بالوراثة في صلب سلوكنا. وقد خلص فريق من الخبراء، في إطار اجتماع في أشبيلية تحت رعاية منظمة اليونسكو إلى: "أن القول بأن الحرب أو أي سلوك عنيف آخر هو صفة مبرمجة وراثيا في طبيعتنا البشرية هو قول غير صحيح علميا." في الماضي البعيد، وفي ظل الظروف القاسية التي عاش فيها الإنسان البدائي، كان كثيرا ما يضطر الإنسان إلى أن يقتل من أجل البقاء، في تنافس بسبب الغذاء أو رفيق الحياة. وفي وقت لاحق، عندما تشكلت المجتمعات المحلية، كانت مجموعات من الناس تقتل مجموعات أخرى من الناس لنفس السبب، وأصبحت الحرب جزءًا من ثقافتنا. ولكن الآن لم يعد هذا ضروريا. ويرجع الفضل في

* (باللاتينية) Si vis pacem, para bellum

ذلك إلى حد كبير إلى التقدم في العلوم والتكنولوجيا، فلا ينبغي أن تكون هناك حاجة لأن يقاتل الناس بعضهم بعضا من أجل البقاء. وحتى مع الزيادة الهائلة في عدد سكان العالم، فإن هناك من الغذاء وغيره من ضرورات الحياة ما يكفي للجميع، لو تمّت إدارته بشكل سليم وجرى توزيعه بالتساوي. والمشكلة، بالطبع، هي أن هناك عوامل أخرى، مثل الطمع، تدخل في الحسبان، والنتيجة أن الموارد ليست موزعة توزيعا عادلا، وبالتالي لا يزال كثير من الناس يتضورون جوعا، وما زال كثير من الأطفال يموتون بسبب سوء التغذية. وما زال أمامنا الكثير لنفعله قبل أن تصبح احتمالات إزالة الأسباب الأساسية للحرب واقعاً ملموساً.

ومع ذلك، فنحن نخطو قدماً نحو عالم خال من الحروب، حتى ولو كنا لا نفعل ذلك عن وعي. نحن نتعلم من دروس التاريخ. ففي الحربين العالميتين من القرن الـ 20، كانت ألمانيا وفرنسا أعداءً ألدّاء. لقد كان المواطنون في هاتين الدولتين - وفي دول كثيرة غيرهما - يُقتل منهم بالملايين. ولكن الآن فإن احتمال نشوب حرب بين فرنسا وألمانيا يبدو من غير المعقول. والشيء نفسه ينطبق على الأعضاء الآخرين في الاتحاد الأوروبي. وبالرغم من أنه لا يزال هناك بينهم العديد من الخلافات حول عدد من القضايا، فهذه يتم تسويتها عن طريق المفاوضات، وتبادل الأخذ والعطاء. لقد تعلم أعضاء الاتحاد الأوروبي أن يحُلوا مشاكلهم بوسائل أخرى غير المواجهة العسكرية.

ونفس الشيء بدأ يحدث في القارات الأخرى. الأنظمة العسكرية تتهاوى؛ المزيد والمزيد من الدول تتجه نحو الديمقراطية. وبالرغم من فظاعة ما سُفك من الدماء في السنوات الأخيرة: الإبادة الجماعية في رواندا، والتطهير العرقي في البوسنة وكوسوفو، وقتل الأطفال في بيسلان، فإن عدد الحروب الدولية آخذ في التناقص. إننا تدريجيا نتفهم عدم جدوى الحرب، وندرك الخسارة المطلقة في قتال بعضنا بعضا (وإن كان هذا لا يبدو منطبقا على الإرهابيين، الذين يظهرون تجاهلا تاما لقدسية الحياة البشرية).

وبنفس المنوال، لكي يصبح مفهوم العالم الخالي من الحروب مقبولا عالميا يجد من يرعاه ويتبناه عن وعي بالسعي إلى اعتبار الحرب عملا غير شرعي، فسيكون من المطلوب إجراء عملية تعليمية على جميع المستويات: تعليم من أجل السلام وتعليم من أجل المواطنة على مستوى العالم. علينا القضاء على الثقافة التي غرست فينا، وما تعلمناه من أن الحرب عنصر أصيل في بناء المجتمع الإنساني. علينا تغيير العقلية التي تسعى لتحقيق الأمن في وطنها الخاص بأساليب تشكل انعدام الأمن للآخرين .

يجب علينا أن نستبدل بالمقولة الرومانية القديمة مقولة أساسية للبقاء واستمرار الحياة في الألفية الثالثة: إذا كنت تريد السلام فقم بالإعداد للسلام. وسوف يتطلب ذلك بذل جهود في اتجاهين: الأول - نهج جديد للأمن، كجزء من الأمن العالمي؛ والآخر تنشئة وتنمية ولاء جديد - ولاء للبشرية.

وفيما يتعلق بأمن العالم، فإن المشكلة الرئيسية ستكون منع الحروب التقليدية بين الدول، واستخدام الأسلحة العسكرية من جانب الحكومات في تسوية النزاعات الداخلية. وسيتطلب ذلك بعض القيود على سيادة الدول، وربما تعديل ميثاق الأمم المتحدة، الذي يقوم على أساس مفهوم سيادة الدول.

إن التنازل عن السيادة أمر بغيض جدا لمعظم الناس، ولكن بعض التنازل عن الحقوق السيادية يحدث طوال الوقت، بفعل الترابط الذي يتزايد باستمرار بين الأمم في العالم الحديث. إن كل معاهدة دولية نوقعها، وكل اتفاق بشأن التعريفات الجمركية أو غيرها من التدابير الاقتصادية، إنما تعني تنازلا عن السيادة في المصالح العامة للمجتمع العالمي. ويجب علينا الآن أن نضيف لهذه المعادلة حماية للبشرية.

إنها مشكلة شائكة ولكن لابد من التصدي لها. فإحدى المهام الرئيسية للدولة هو أن تضمن أمن مواطنيها ضد التهديدات من الدول الأخرى، وقد ساد الفهم بأن ذلك يعني امتلاك القدرة على شن الحرب. هناك دعوة للتغيير في هذا الصدد: فهناك حاجة إلى فصل السيادة عن الدولة، والاستعاضة عنها، بالاستقلال الذاتي. وعلى وجه الخصوص، سوف يتعين تقليص حق الدولة في القيام بالحرب. وهذا يعني الاستغناء عن وجود قوات عسكرية وطنية، وأن تكون هناك قوة جبرية شرعية وحيدة على مستوى العالم تقوم

بدور قوة بوليسية مسئولة كسلطة عالمية. ويبدو أن إيجاد شكل ما من أشكال نظم الحكم في العالم هو نتيجة حتمية للتطور في الأمم المتحدة.

وفي سبيل تحقيق ذلك يتعين أن يتأصل لدينا الولاء للبشرية. وبصفتنا أعضاء في المجتمع الإنساني، فإن كل واحد منا يدين بالولاء للجماعات التي نعيش فيها. وعلى مسار التاريخ كنا نمد ولاءنا تدريجيا إلى مجموعات أكبر، من أسرتنا، إلى جيراننا، إلى قريتنا، فإلى مدينتنا، ثم إلى أمتنا. وأود أن أؤكد أن الولاء لمجموعة أكبر هو إضافة إلى الولاء للمجموعات الأصغر، وليس تبديلا لهذا الولاء. وفي الوقت الحاضر ما يمثل المجموعة الأكبر هو أمتنا. ذلك منتهى ولائنا الآن. إنني أقول إن الوقت قد حان لندين بالولاء لمجموعة أخرى أكبر: إن علينا أن ننشئ وننمي الولاء للإنسانية.

إن الولاء للبشرية يرسخ أكثر وأكثر كل يوم بسبب تزايد الاعتماد المتبادل بين الأمم، ليس فقط في عالم الاقتصاد، ولكن أيضا في المسائل الاجتماعية والثقافية؛ وهو ناجم عن التقدم في مجال العلوم والتكنولوجيا، وبوجه خاص، التقدم في تكنولوجيا الاتصالات؛ والتقدم الهائل في النقل والمواصلات والمعلومات، الذي حدث في القرن الـ 20، والذي كنت شاهدا عليه خلال حياتي الطويلة.

ويكتسب التقدم في مجال تكنولوجيا المعلومات أهمية خاصة، في مختلف أشكالها. تكنولوجيا الإنترنت تمكننا من المحادثة مع الناس أينما كانوا. وهي توفر إمكانية الوصول إلى عدد غير محدود من مصادر المعلومات، والوسائل الكفيلة بالإسهام بمعرفتنا أو أفكارنا الخاصة بنا. أما تكنولوجيا المعلومات فقد بدأت حقا في تحويل العالم إلى قرية عالمية: نحن نعرف بعضنا البعض، ونجري التعاملات بين بعضنا وبعض؛ ونعتمد بعضنا على بعض ونحاول أن يساعد بعضنا بعضا. نحن نصبح بحكم الضرورة مواطنين عالميين.

إنني أرحب بالتقدم الرائع في مجال الاتصال والإعلام بوصفه عاملا قويا في مواجهة الفتنة والحرب، لأنها توفر وسائل جديدة للناس ليتعرفوا على بعضهم البعض وتنمية الشعور بالانتماء إلى المجتمع العالمي بكامله. وهذا من شأنه أيضا بمرور الزمن أن يقلل الفجوة الاقتصادية بين الدول الغنية والدول الفقيرة.

واسمحوا لي أن ألخص ما سبق. إن تطبيقات العلوم والتكنولوجيا، السلبية والإيجابية على حد سواء، قد خلقت الضرورة وأتاحت الفرصة لتعزيز المواطنة العالمية. وهناك حاجة لإحداث تغيير في التعليم يبشر بولائنا للبشرية؛ حاجة للحفاظ على النوع البشري واستمرار حضارتنا.

على مدى العديد من آلاف السنين، أنشأ الجنس البشري حضارة عظيمة، وصنع ثقافة غنية ومتنوعة؛ وجمع كنوزا هائلة في الفنون والآداب، وأقام الصرح الرائع من العلوم. ومن المفارقة العجيبة حقا أن الإنجازات الفكرية للجنس البشري نفسها هي التي وفرت أدوات التدمير الذاتي، في نظام اجتماعي على استعداد للتفكير في القيام بهذا التدمير.

بالتأكيد، يجب علينا أن لا نسمح لهذا أن يحدث. إن واجبنا الأسمى كبشر أن نحافظ على حياة الإنسان، لضمان استمرارية الجنس البشري. إن احتمال حدوث محرقة نووية لا يبدو وشيكا. وبعد أن كنا قريبين من ذلك في مناسبات عدة خلال الحرب الباردة، فنحن الآن إلى حد ما أكثر حذرا. ولكن الحرب لا تزال عرفا اجتماعيا قائما، وكل حرب تحمل معها احتمال تصعيد يجر إلى عواقب وخيمة بالنسبة لجنسنا. في عالم يتسلح بأسلحة الدمار الشامل، التي قد يؤدي استخدامها إلى نهاية للحضارة كلها، لا يمكننا القبول بمجتمع مستقطب، مع ما ينطوي عليه من خطر المواجهات العسكرية. وفي هذا العصر العلمي، فإن وجود مجتمع عالمي عادل ومنصف، ننتمي إليه جميعا كمواطنين عالميين، أصبح ضرورة حيوية.